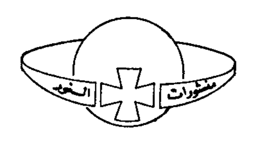
المطران جورج خضر

تأملات في تجسد الكلمة

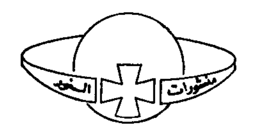
طبعة ثانية



المطران جورج خضر

تأملات في تجسد الكلمة

طبعة ثانية



للمؤلف

حديث الاحد	منشورات النور
فلسطين المستعادة (نفذ)	» »
انطاكية الجديدة	» »
الصوم (طبعة ثانية)	» »
الكنيسة في العالم (له فيه عدد من المقالات)	» »
هل الدين افيون للشعوب ؟	» »
كلمات انجيلية	» »

الفهرس

صفحة

كتبت هـــذه الصفحات في كانون الاول ١٩٦٥ ، بمناسبة عيدي الميلاد والظهور الالهي علها تكون منطلق تأمل لمن يبني حياته الروحية وذكرى لمن دخل معراجها .

توطئة

« لما بلغ مـــلء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة ، مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني . ثم بما انـكم ابناء ارسل الله روح ابنه الى قلوبـــكم صارخاً يا أبا الآب » (غلاطية ٤ : ٤ — ٦) .

هذا ما نسمعه في العيد وما يتم في الكنيسة سرياً . ولكن مولد الحبيب له ايضاً معنى شخصي ، باطني خـــارج العيد اشار اليه الرسول بعد هـذا الكلام بقوله : « يا بنيّ الذين اتمخض بهم مرة اخرى الى ان يتصور المسيح فيهم » (٤ : ١٩). في الكلام الاول ولد المسيح خـارجاً ، في مغارة ، من فتاة اسمها مريم . وفي الكلام الاخـــير توق عند الرسول الى ان يولد الرب في كل نفس وكأن ما جرى في التجسد ما كان الا ليلقي الكلمة الالهي نفسه في كل قلب بشري . ويبدو لمن تأمل في هذين المقطعين انهما متصلان اتصالاً وثيقاً بل انهما يؤلفان سياقاً واحـداً . فبعد ان

دعا بولس أهل غلاطية ان يعتبروا أنفسهم ابناء على صورة الابن الوحيد اخذ ينهيهم عن العبادات الباطلة التي كانوا يتعاطون قبل نصرانيتهم . فالتعبد لها عودة الى العبودية الروحية التي كانوا فيها غارقين . فكل شيء ما عدا المسيح ، في اليهودية والوثنية ، عبودية وبالتالي حياد عن عهد البنوة وكأن المسيح لم يولد لنا . من اجل ان تكون لكم هذه الحرية في المسيح ، يقول الرسول متابعاً ، تعبت لأرد عنكم غيرة الاخوة الكذبة (٤ : ١٧) « الداخلين زوراً الذين استرقوا الدخول ليتجسسوا حريتنا التي نحن عليها في المسيح يسوع فيستعبدونا » (٢ : ٥) . فلست اتعب فقط ولكني اتمخض ليصبح المسيح وليد كل نفس فيكتمل اذ ذاك سر ظهوره .

انطلاقاً من هذا ان ما صح في ميلاد المخلص كما جاء للمرة الاولى يجب ان يصح في كل مولد له في المجال الانساني الداخلي . ما هي اركان الميلاد الخلاصي كما تبين من الكلام الرسولي الذي استهلينا به هذه التوطئة ؟ انها **ملء الزمان ، تدخل الهي ، البتول ، قصد فداء ، حصول التبني ، مناجاة الاب .**

سوف نسعى الى استدرار معنى كل من هذه العبارات في انطباقه على الحياة الشخصية اذا كانت تواجه سر مولد الرب فيها.

ملء الزمان

ملء الزمان لا تعني ، كما يتوهم بعضهم ، الظرف المناسب ولكنها تعني انتهاء الزمان . الكلمة الذي كان في البدء صار جسداً في الزمان الاخير . فالكلمة الذي هو الالف والياء ، يطلق الزمان ويقفله . لم يكن وقت ما كان الكلمة فيه .فالكلمة هو معطي الوجود ومعنى الوجود .

اجل ان الاوقات تجري من بعد المسيح وها قد انقضى على ميلاده تسعة عشر قرناً ونيف ومع ذلك فكل شيء ظهر بعد بيت لحم وأورشليم انما يضاف اليهما . كل خير ينبع منهما .كل ما يبني وينقي ويهيء للملكوت انما هو من زمان المسيح ودفق ابديته . كل حدث من أحداث حياته في البشرة ، كل تصرف في اخلاقه الفادية ، كل كلمة تعليم وتعزية ، كل نبضات قلبه نحو الآب والمساكين ، ثم حياته السرية المجيدة في الثالوث القدوس تربط كل لحظة من وجودنا بزمانه المبارك .

وهو اليوم اذا شاء ان يولد في احبائه من جديد ينهي الزمان المتكسر الذي كان لهم ،اوقات آدم العتيق .يضع ديمومته فيهم. يبدل ايقاعهم بايقاعه . يحل فيهم ابديته فاذا بهم في حاضره المقيم وهم جديرون بأن يقال لهم ايضاً ما قيل عنه : « انت ابني وانا اليوم ولدتك » (مزمور ٢ : ٧ و عب ١ : ٥)

تدخل الهي

في ملء الزمان أرسل الله ابنه . الميلاد الثاني ميلاد من فوق. قد يهيء له الجهد البشري ولكن لا يحدثه . هـو بالكلية جديد بالنسبة الى مـا ننتظر لأن سلام الله يفوق كل عقل وكل القوى الزاخرة التي فينا . أجل ، النفس ذواقة لله واليه حنينها . وعلى ذلك ليس في الحواس ولا العقل ولا في خلجات العاطفة ما نستطيع تشبيهه باللطف الالهي اذا حضر . الله آخر كلياً اذا قيس بصورة بشرية مهما سما كالها . فالانسان يصبح جديداً لأن الله فقط جديد . لم يكن ، قبل حلوله في النفس ، شيء مثله .

الله هو الذي يولد وليس شيء منه . النعمة الـتي نُعطاها اشعاع منه ، قـوة منه وفعل من ذاته . لو كانت العطية شيئاً مخلوقاً يقذفه فينا ، لو كانت من غـير كيانه لما تحققت كلمة الرسول ان المسيح هو الذي يُتصور فينا ، لما استطعنا ان نقول معه في حديثه الى أهل غلاطية : « انا حي لا انا بـل انما المسيح حي فيّ » (غلا ٢ : ٢٠) .

العيش الديني الرتيب و هذه الديانة الوجلة التي لا جسارة

فيها انما هي الاشارة على أننا لم نصدق بعد اننا منزل للثالوث الكلي قدسه وانا بالتالي عشراء الله . لعلنا لا نريد ان نعي اننا «شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بطرس ١ : ٤) وكل ما دون الله ليس سوى محاولات عقيمة نقوم بها اذا اعرضنا عن الـــكامل ، عـــن الغوص في الحياة الالهية . نود الفرائض الخارجية لانها لا تـكلفنا بذل النفس من الاصول .انها تكفينا رؤية الله وجهاً لوجه فترضى النفس بالفتات . تتوهم ان الوصول الى الله هـــو بتراكم الاعمـال الصالحة نقبل عليها بتوتر الارادة واذا بنا في دوامة . الفراغ ضده الملء والعطش الكياني لا ترويه الا الينابيع المتفجرة من اعماق الرب .

قبل ان يصبح هو الكل فانه لم يولد فينا . واذا كنا لا نزال نقيم لغيره او لشأن ما وزناً فانه ليس الكل . هـــذا هو شرط الميلاد البتولي .

البتـــول

على غرار النهج الذي اتبعه الله في تجسد الكلمة يظهر الرب فينا بتولياً . انه فينا ، كما في السيدة الفائقة البركات ، يولد بغير زرع ، « لا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجـل » (يوحنا ١ : ١٣) . وكما جاء من النقية وحدها لــكي لا يكون مديناً لانفعال بشري هكذا يولد اليوم من النفس البتول التي اخرست فيها صوت البشرة « ولا تفتكر فكراً ارضياً البتة ». البتولية ليست وضعاً جسدياً ولكنها حال النفس اذا اسلمت الى ربها اسلاماً كلياً وتقبلت فقط زرع الكلمة الالهية . وقـد علمنا باسيليوس الالهي ان الانسان يستطيـع ان يعف عـــن الجسد وخيالاتــه دون ان يكون بتولاً ، وأرشدنا الآباء ان الزانية في توبتها تصبح بتولاً من جديد .

لقد ولد الاله من العذراء حتى يبقى لنا ذلك مثالاً . انه دائماً وليد العذرية الداخلية . « وظهرت آية عظيمة في السماء ، امرأة مسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد ،وظهرت آية اخرى في السماء . هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس ... والتنين وقف أمام المرأة العتيدة ان تلد حـــتى يبتلع ولدها متى

ولدت فولدت ابناً ذكراً عتيداً ان يرعى جميع الامم بعصا من حديد . واختطف ولدها الى الله والى عرشه »(رؤيا ١٢ :١—٥).

هذه المرأة يقول لنا المفسرون ، انها صورة عن الشعب الالهي الذي منه ولد المسيح . الكنيسة هنا شبهت بمريم لأن تبتل الكنيسة الى ربها هو الذي يطلق المسيح في العالم . الكنيسة دائماً حبلى بالمسيح ولا يهنأ لها بال حتى يُعرف . انها دائماً في المخاض حتى تلده . **الكنيسة البكر التي لم تلته عن ربها بشؤون الدنيا هي القادرة ان تبرز الرب للعالم .**

هكذا النفس اذا صارت عروساً ليسوع، ذلك لأن الكنيسة في وحدتها وانصرافها الى المعلم صورة عن النفس الانسانية . الزواج الروحي يقوم ليس فقط بين الرب وشعبه ولكن بين الرب وكل مؤمن .

هذا الزواج السري يفرض ان النفس هي وحدها مع الرب وحده . كل شعور نحو المخلوق ، اذا كان يؤذي هذا التوحد ، شعور وثني . **ينبغي ان تنفصل النفس البكر عن الجميع لكي تكون ، من خلال الرب للجميع .** ولكن كل اختلاط، في ذهننا، بين الخالق والمخلوق معصية للخالق من جهة لانه شرك واهمال للمخلوق . الانصراف الكلي لخدمة البشر يفترض استقلالنا الكلي عنهم .

المؤمن ، قبل كل شيء ، مستقل عن الناموس ما عدا ناموس المحبة . « الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها ولكنك لا تعلم من اين تأتي ولا الى أين تذهب . هكذا كل مولود من الروح » (يوحنا ٣:٨) . **هذه هي حرية ابناء الله . انهم صاروا ناموساً لانفسهم فانهم رسالة الله المكتوبة باصبع الروح** . لقد اصبحوا هم أنفسهم الانجيل الحي الملهم ، شريعة لانفسهم والآخرين . من صار في المحبة فقد كملت الشريعة فيه. لقد أدرك عالم المعاني كلها. فقد توحدت فيه بعد تجزؤ . من خلال الله الذي فيه يرى هذه الوحدة بين الاشياء .

تجاوزنا للناموس لا يلغي الطقوس والعبارات العقائدية كمناهج الى الله . فالله يتراءى دائماً لنا من خلال هذا الحجاب الذي يستر وجهه ويكشفه بآن . انها – بهذا المعنى – موطن السر الالهي والحضرة المحيية . الانسان اذا انعتق منها يسقط في خداع من نفسه وسراب. ولكن الله يفسرها لنا كما يفسر لنا الكتب (لوقا ٢٤ : ٢٧ و ٣٢) . يحررها من كل كثافة هي حاجز دون معرفته . كذلك يحافظ العارف على كل لون من الوان الرياضة

الروحية ، على وسائل التقشف والانضباط الكنسي عالماً بأن لها قيمة الوسيلة ومدركاً ، بآن ، انه عرضة للتجربة وان يقع من جديد تحت وطأة الناموس كأنه لم يدخل الى عهد النعمة ولم يذق حرية الملكوت .

المؤمن العارف يختبر النعمة عطاء حياة . انه مقيم في النعمة ، مُعمّد في النور . انه « مالك في الحياة »(رومية ٥: ١٧)،صائر الى الابد في موكب الظافرين ، تتجدد حياتـه في البر والطهارة لأن « الحياة التي يحياها انما يحياها لله » (رومية ٦ : ١٠). رؤية الميلاد عنده هي رؤية الحياة التي اخذت،منذ اول لحظة التجسد، تتغلب على حدود الطبيعة وقوى الظلام ، الـتي شرعت تقهر المـوت المعشش فينا . في الايقونات البيزنطية ، مغارة بيت لحم مرسومة باللون الاسود والطفل الالهي ملقى فيها كتلة صغيرةمن نور كأن قماطه الكفن وكأنه منذ تلك اللحظة دفـين الارض . « النور يضيء في الظلمة »، لا يساوم واياها ، لا يتقاسمان النفوذ. انـه يفنيها . المسيح ظافر منذ ان ارتسم في الحشا . عيد مولده هو فصح ثان كما قال كتاب قديم. المسيح دشن ارتفاعه في تواضعه. الذين قبلوه في سر الخفاء « أعطاهم سلطاناً ان يصـيروا أولاد الله » (يوحنا ١ : ١٢) .

حصول التبني

«لن أدعوكم فيما بعد عبيداً لأن العبد لا يعلم ماذا يعمل سيده لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من ابي» (يوحنا ١٥:١٥). كل محب ليسوع داخل حقاً في سره، متكىء على صدره. يعلمه الله بكل ما عنده للبشرية من مقاصد حب. صار الله معروفاً لدينا. بيننا تبادل الصداقة. لقد أحبنا أولاً لكي نفهم عظم محبته لنا، ليدربنا عليها فينفطر قلبنا ونصبح بدورنا محبين فنكتمل. ولكي ندرك كل ذلك كان من الضروري ان يرفعنا من وضع العبودية الى وضع البنوة. «آدم ابن الله» (لوقا ٣ : ٣٨) فقد بنوته بالخطيئة وسقط في عبودية نفسه. فذاق المسيح الموت لأجل كل واحد «لانه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل وهو آت بأبناء كثيرين الى المجد ان يكمل رئيس خلاصهم بالآلام. لأن المقدّس والمقدّسين جميعهم من واحد فلهذا السبب لا يستحي ان يدعوهم اخوة» (عب : ١٠ - ١٢). الانسان الذي تغرّب عن الالوهة بالعصيان صار من «أهل بيت الله» (افسس ٢ : ١٩). ليس هو - كما قال الآباء - عبداً يخشى العقاب ولا أجيراً يرغب في المكافأة ولكنه

ابن . يحب لأن الله تبارك اسمه جدير بكل محبة . لا نخاف لئلا نبقى في العبودية ولا نرغب في ثواب لا نزال نحسبه شيئاً معطى ولكنا نريد الله من اجل ذاته بعد ان أظهر لنا جماله في أخلاق يسوع المسيح .

مناجاة الآب

َهدَف التجسد ان يجعلنا الله متحدين به . حركة التنازل الالهي يقابلها حركة التصاعد الانساني وكان ينبغي ان يدشن حركة الصعود هذه الى السموات السيد بعد ان أوصل ناسوته الى الكمال بالصليب. كانت طاعته الكلية حتى الموت طريق ارتقائه في الجسد الى السمويات وسيادته على الكنيسة والكون . « الذي نزل هو الذي صعد ايضاً فوق جميع السموات لكي يملأ الكل » (افسس ٤ : ١٠).المسيح المكتمل في ناسوتيته المجيدة هو الذي يطلق من كيانه المخلّص ، الروح القدس . وكما كان دور الروح ان يرسم المسيح في الحشا البتولي فدوره اليوم ان يوصلنا الى « انسان كامل »(افسس٤ :١٣) أي ان نصبح جميعاً عائلة الآب الواحدة ككيان واحد يؤلفه الرأس والاعضاء . المحبة واحدة تقود هذا الجسد الى الرأس المسيح باستمرار . وهذا الجسد في تآلف أعضائه واقتران بعضها ببعض آخر ، ينمو في« معرفة ابن الله » أي في معرفة المسيح ابناً وادراك الاعضاء اخوة له . دور الروح القدس الآن ان يزيل كل ما يعيق هذه المعرفة ، ان يطهرنا بتلك النعمة التي تجعلنا غير مثقلين بأوزار العالم فنصلب مع المسيح

ونموت معه لـكي نحيا به . واذا كنا أحياء فنحن في سر صعوده. لقد « أقامنا معه وأجلسنا معه في السمويات » (افسس ٢ : ٦)

انها لعملية مستمرة . نحن ، في السمويات ، مع المسيح يسوع مذ جلس عن يمين الآب مثلما كنا معه في موته وقيامته لاننا لا نستطيع ان ننفصل عن الرأس المسيح . « حيث أكون انا فهناك يكون خادمي » . لقد بدأ المسيح جلوسنا عن يمين العظمة . ولكنها عملية حياتنا كلها لانه علينا دائماً ان « نطلب ما هو فوق » (كولوسي ٣ : ١) . من اجل ذلك صلى ربنا في خطابه الوداعي : « أيها الآب أريد ان هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون انا » (يوحنا ١٧ : ٢٤) . دعوتنا الآن ان نتجه في روح واحد الى الآب (افسس ١ : ١٨) . والجدير بالذكر ان الرسول الالهي عندما يتكلم عن هذا الذهاب الى الآب يقول «اننا لسنا غرباء ونزلاء ولكننا أهل بيت الله ومبنيون على أساس الرسل والانبياء ويسوع المسيح نفسه هو حجر الزاوية» . فبين الرحيل الى الله والاقامة في بيت مؤسس تضاد ، ومع ذلك فالمسيح هو الذي يجمع الاضداد ، لسنا اذاً مسافرين الى الله بحيث ننسى واجب الشهادة في العالم ولسنا راسخين في هذه الدنيا بحيث ننسى ان وطننا الاوحد هو في السمويات. من اجل

تقديس الكنيسة القائمة في الدنيا تـــألم السيد « خارج الباب » (عب ١٣ : ١٢) ، ويستتبع هذا الواقع الخلاصي ان نخرج اليه خارج المحلة حاملين عاره ، لأن ليس لنا هنا مدينة باقية (عب ١٣ : ١٣) . **بهذا الانسلاخ المستمر عن الدنيا والشخوص الى المحجة السموية يتحقق فينا الدور الاخير من سر التجسد ،** دور الرجوع الى الآب ، مصدر الوجود وغايته ومصدر الابن الازلي وغايته الفدائية ، « آخر عدو يبطل هـــو الموت ، لانه اخضع كل شيء تحت قدميه ، ولكن حينما يقول ان كل شيء قد اخضع فواضح انه غير الذي اخضعَ له الكل ، ومتى اخـضِع له الكل فحينئذ الابن نفسه ايضاً سيخضع للذي اخضـع له الكل لـكي يكون الله الكل في الكل » (١ كو ١٥ : ٢٦ — ٢٨) . متى بطل الموت في اليوم الاخير ستتحقق سيادة المسيح كلياً على الكون، أما الآن ففي سر تخليه،احتراماً منه للانسان وحريته، حباً منه للانسان في امكان تمرده ، ليس كل شيء خاضعاً له ، ولكن عند بطلان كل قوى الظلام،والموت رمزها ، سيكون كل شيء في طاعة السيد والسيد نفسه ، في زعامته لهـــذه البشرية المنصاعة ، في تمثيله لهـا وحمله اياها سيخضع للآب . لم يكن الله الكل في الكل في هذه البشرية الـــتي هي امتداد المسيح لانها

كانت ، بجسديتها وعالميتها ،خارجة على المشيئة الالهية. سيخضع المسيح لا بسبب من نفسه ، بل من أجلها هي . سيخضع للآب فيصبح الله عند ذاك حقاً الكل في الكل .

ان نجعل الحياة المسيحية كلها سلوكاً نحو الآب أمر يتطلب فعل الروح القدس . الروح نفسه الذي هيأ الطريق لتنازل الاله الينا هـــو الذي يمكننا من التصاعد اليه . التبني الذي حصلنا عليه بالتجسد يبقى دائم الامكان ويتقوى بهذا الروح الالهي عينه الذي يناجي الاب فينا ،يصرخ « أبا» ،تلك الكلمة الارامية التي تعني الاب انمـــا كانت لفظة الدالـّة التي كان أولاد العبرانيين يتوجهون بها الى والديهم والتي تقابل « بابا » في لغاتنا . بالبساطة الكبرى ، تلك التي تمنحها الجسارة ، يذهب المؤمـــن الى ذاك الذي يحقق وجودنا .

الذي يزيل من صلاته وفكره هذا السير الى الآب ، الذي يركز كل تأمله على يسوع وحده ، على حياته في البشرة ،ولا يتطلع الى سر مجده وحركته نحو اصله الأزلي فقد بتر حياته الروحية من عنصر فيها اساسي .

الخلاصة

حقائق الايمان هذه التي كشفنا ، هي النور الذي رتب العيد لاظهاره للعالمين . والانسان في تخبط حتى يجده . « وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم» (لوقا ٢ : ٨) . من فوق ينبغي لهذا النور ان ينبلج : هو دائماً وليد المجانية الالهية المحيّرة . « واذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب اضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيما » . لا شك ان مرور الله يجعل الانسان في ارتباك ورعدة لان الله دائما غير ما نتوقع . انه مقلق للانسان في تدابيره ، يفصله عن ذكرى الماضي وخطط الاتي . يهزأ مما احتسبه الانسان حكمة في انجازاته . في أوان الله كثير ما يكون بعض من جنون خيراً من المنطق . او قل هو منطق آخر يقتحم العقل له نواميسه الخاصة . الانسان في مظهر الضعف ينزع عنه سلاحه ليتمرن على سلاح آخر. الحرب الروحية لها قواعد غير التي ظنها. مرور الله يقض المضاجع .لذا «قال لهم الملاك لا تخافوا فها انا ابشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب». الفرح دائماً غريب ، آخر عن كل ما سبقه . نحن كلياً عاجزون عن تصور وقته وعمقه . انه دائماً جديد ومجدّد لان صاحبه ،

على مثال الله ، خالق . الفرح ، كالخلـق ، لا يوصف . يعرف الانسان المخاض الذي كان قبله .لا يعرف كيف انتقل من المخاض اليه . « انــه ولد لـكم اليــوم في مدينة داود مخلص هــو المسيح الرب » . داود كان ملك الدعة ، قلبه ، يقول الكتاب ، كان كقلب الله . في الدعة والنقاوة يولد الرب ، يولد اليوم ، في كل يوم من نفس كفرت بذاتها ، صارت عذراء لربها واستطاعت ان تؤتي الناس الفدية من جديد بدخولها في سر البنوة العظيم وسيرها الدؤوب نحو الملكوت المقبل اليها في نجواها للآب . هذا هــو سر القديسين انهم يحتضنون الله ويغذون حنين الكون اليه . لولاهم لمـا ظهر الله لمــن تبدى في الليالي ولتحولت الدنيا الى صقيـع . انهم هم الذين يجعلون كل يوم يوم خلاص وكل لحظة أوان رضاء .



تم طبع هذا الكتاب في ٣٠/٤/١٩٧٥
في مطبعة النور تلفون ٢٨٦٩٨٩
لحساب منشورات النور ص. ب. ١١٢٩٦٦
بيروت – لبنان